الفصل الثانى

ريفنا المصري

نلجأ جميعا الى الهدوء والسكينة ، نحتمى بهما من الصخب واللجب .

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى
وصـــــوت انسان فكدت أطير

وأين نحتمى من صخب المدن وتكاليفها وضوضائها ؟ وأين نروح عن النفس عناءها وعن الجسم متاعبه ؟ فى الريف كل ما نطلب من هدوء بعد صخب ، وسكون بعد حركة ، وبداوة ساذجة بعد حضارة متكلفة ، فى الريف مستراح للمعني ، وملاذ للمتعب ، ومتنفس المكروب ، نعم ! فى الريف ننشد راحتنا وطمأنينتنا ، ونجد عزاءنا وسلوانا ، ونرى أنفسنا رؤية الحقيقة فلقد قال « أمرسون » : « ليس الأنسان سوى نجاح الطبيعة فى تصوير نفسها » وفى أي مكان نشهد جمال الطبيعة وجلالها ، ونجاح تصويرها وكمال فنها ودقة صنعها . خيراً من الريف ؟ فى الريف معابد الجمال

حقا لمن أراد أن يعبد الجمال ، فى الريف « ألوهية الفن » لمن شاء أن يستلهم ملائكة الفن ، هنا « قدسية الدين » وخشوع الايمان ونور اليقين ، لمن غشت عيونهم ظلمات الشك ، وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، هنا يعبد الله فى كل مكان ! فى الأرض منبت الخير والبركة ، وفى الشمس باعثة الدفء والحرارة والحياة ، وفى السماء الزرقاء ، وفى النجوم المتألقة ، وفى القمر المنير ، وفى الحقول الخضراء ، وتحت ظلال الكافور والنخيل والتوت والصفصاف ، وعلى حافات الترع والقنوات الجارية الوديعة المرحة ، وفى وجوه الريفيات الجميلات جمال الله لا جمال « الأنسان » !

ما أجمل الطبيعة فى الريف ، وما أوسع « الكون » هنا ، وما أرهب « اللانهاية » ! وما أسهل طرق « المعرفة » لمن يريد أن يبحث عن « المعرفة » ، هنا فى جمال الريف وهدوئه ، وتحت ظلال أشجاره الظليلة الدافئة المتراوحة ، يجلس الباحث عن « المعرفة » يستجلى الكون الواسع وأسراره الدفينة ، ويجول فى تلك « اللانهاية » الواسعة التي لا ساحل لها ولا حد تنتهي عنده ، ليصل الى الله ، الى العلة الاولى أو علة العلل أو « الحقيقة المطلقة » ، من طريق الأرض والسماء ، والنجوم والأفلاك والأجرام والنبت والشجر والماء والشمس والزهر والحيوان ، من طريق « الأنسان » ومن سبيل « الجمال » ، فمن « الجمال » وحده نتصل بالله ونعرفه

ونعبده ونفهمه ونحبه ، والحب كما يقول « تاجور » هو كمال « الشعور بالنفس » ، ونحن لا نحب لأننا لا نفهم ، أو بعبارة أخرى نحن لا نفهم لأننا لا نحب ، لأن الحب هو المعنى الأسمى الأكمل لكل ما حولنا ، فليس هو عاطفة فحسب ولكنه « الحق » ، ولكنه الفرح الذي فى صميم كل الخليقة »

الجمال والحب إذن هما سبيلنا الى الله وطريقنا الى عبادته ومعرفته ، ففى « الجميل » نرى الله وندرك سره فى خلقه ، ونعبده فى قدرته وفى ابداعه وفى كماله ، ونتحد فيه اتحاد العلة بمعلولها ، ونفنى فيه فناء الضعف فى القوة ، والنقص فى الكمال ، والتشويه فى الأبداع والنهاية فى « اللانهاية »

واذا كان الجمال أساس الحب ، وكان الحب أساس الدين ، فأقوانا شعوراً بالجمال وأدقنا حساسية للحسن ، هو أشدنا خضوعا لسلطان الدين ولقداسته ، وأصحنا فهما ومعرفة لملكوت الله وعظمته وكماله

واذا كان الريف فى الغرب معبد الجمال ، ومهبط السحر ، ومستلهم الفن ، ومبتدع « الخلق » والتكوين ، ومستراح النفوس المعناة ، ودواء القلوب الكسيرة من ضنك الحياة ومن آلامها ، والصدور المكلومة من غدر الزمن وتنكره ، ومسرح الأرواح الهائمة الحائرة تبحث فى « اللانهاية » الأزلية عن نور اليقين وعن سر الوجود ، فيتبدد شكها فى أضواء الايمان وفى نور « الحب والجمال » !

أقول اذا كان الريف فى الغرب عزاء المصابين وسلوى البائسين وراحة المكروبين ومحج العاشقين ومعبد المؤمنين وملكوت « الفنانين الخالقين » ، فهل لنا ريف نحج اليه ونحتمى به ونعبد فيه الحب والجمال والقوة مثل ما للغربيين من ريف ؟ وهل لنا ريف يخلق من العظماء ومن النابغين ومن الفنانين ومن « الخالدين » ما يخلق ريف الغرب من رجال العقل والقلب ، من أساطين الحكمة وأنبياء الحب والجمال ؟ ؟ وهل لنا ريف يتجلى فيه « وحدة الوجود » وتتمثل فيه قرابة « الجزء والكل » تمثيلها فى ريف الغرب ؟ ؟

يؤلمنا أن يكون الجواب : لا ! ، يؤلمنا أن نصرح بأن ريفنا المصري كما هو الآن غير مستعد لأن يخلق لنا من الفنانين ومن « الخالدين » ومن « الرسل » ما ينتظر منه فى عصر الأحياء والبعث والخلق !

يؤلمنا ويندي جبيننا من الخجل والأسى ، ونحني الرأس ذلة وضعفا ، كلما وفد علينا من جماعات الغربيين والنازلين ، وكلما ضربوا فى ريفنا المصري الساذج النائم السادر ، فلا تقع أبصارهم إلا على كل ما تتقزز منه النفس وإلا على ما يحقر من نهضتنا الكبرى ويخفض من كائننا القومي ومن تاريخنا الخالد ، « فأوساط الجمال الحي » فى ريفنا المصري ليس فيها الغذاء الروحي الكافى لما يفجر القلوب بالشعر الوجدانى الحي وبالعواطف النبيلة السامية فى يقظتها

وفي تجددها وفى حيويتها ، ولا لما يصعد بالأرواح العالية فى «السكون العظيم» وفى «الملكوت الأعلى» وفى «سماوات الفن» نعم ليس فى ريفنا المصري مهبطا لرسالة الحب ولا لوحي الجمال ، ولا ربوعا لفيض الألهام وفلسفة الأبداع وسر «الخلق» ، ولا مبعثا لوفرة «الحياة» وزيادة «الأنتاج» وبهر السحر وسحر الفتنة ، بل دور متهدمة متناثرة ، وحقول نائمة ساكنة كسلة ، وترع راكدة كدرة فاترة ، وأشجار متجردة عارية صامتة ، وناس فقدوا أو أماتوا «حيويتهم» ما بين ضنك الفاقة والاسى ، أو بين الافلاس في سوق «الجمال والحب» !

نعم! يكاد يكون من أشد العوامل في هبوط «حيويتنا» وفى الافلاس في خلق رجال ونوابغ وفنانين وشعراء ينهضون بنا وبالعالم جميعاً من هذا الركود الروحي وهذه الرخاوة الشعورية الفاترة المتبلدة ، هو اننا لا نعني قليلا ولا كثيراً بتوسيع دائرتنا الثقافيه من ناحية «الجمال» ، فليس للحياة لدينا قيمة أكثر من انها وسيلة الى ارضاء شهواتنا المادية المنفعيه ، والى استدرار الأموال واكتنازها ، والى حشو البطون وامتلائها ، أما قلوبنا ، أما شهواتنا الروحية ، أما ثقافتنا «الشعورية» ، أما ناحيتنا «العليا» وكائننا «الأسمى» ، فتكاد تكون لدينا جميعا نافلة من النوافل ، و «لا شيء» بين الأشياء ، وهذا ما يجعل حياتنا موحشة قفرة فقيرة مظلمة مبغوضة ضيقة ، وهذا ما يدعونا الى أن نطأطىء الرأس ذلة وخجلا وعاراً ، اذا

ما سمعت آذاننا أسماء نابليون وروسو وشكسبير وجوت ودانت وبيتهوفن وفولتير وماركوني وأديسون وتاجور وغيرهم ، هنا أمام هذه الاسماء الخالدة نشعر بذلة في (فخارنا القومي) ، لاننا لانعطي حياتنا قيمة إلا من الوجهة المنفعية ، ولا نفهم الحب إلا انه وسيلة ، ولا الجمال إلا انه فريسة شهوة وضيعة ، وملهاة فارغة لنفوس خاملة وقلوب ضعيفة

واذا كان هذا حالنا من الفقر في الشعور والخمود في (الحيوية) والركود في (الأنتاج) واذا كنا لا نعنى كثيراً ولا قليلا (بثقافة الجمال) ولا نخلق لأنفسنا بأنفسنا معابد الجمال ومهابط السحر ، ومباعث الفن والخلق والفتنة ، من هذه الأرض المدحوة الخيرة المحسنة الغنية ، ومن هذه الحقول الخضراء الوديعة الساكنة ، ومن هذه الأشجار العالية الصامتة المتراوحة ، ومن هذه (الكائنات العليا) كما يسميها (لامارتين) التي ينقصها يد الأثري ليخرجها وينفض عنها غبارها ، ويبرزها للعالم وللوجود فيضا للالهام ورسولا بالنور وبالحق وبالحب وبالجمال وبالحياة جميعا

أقول اذا كنا نحن بأنفسنا دعاة انحطاطنا ومعاول هدمنا ، فنحن أيضا بأنفسنا يمكننا — لو شئنا — أن نرفع (حيويتنا) وأن نخلق من أرضنا جنات نحج اليها ونحتمى بها ، ونجد فيها أنفسنا ، ونغذي فيها عقولنا وقلوبنا وأرواحنا ، فتغترف عيوننا النور وتستمتع قلوبنا وأرواحنا بما في الوجود من حب وجمال ومن سحر وفتنة

وابداع واعجاز ، وتفيض عن عقول خالقة محققة ، وعن رجال ونساء يشعون الحكمة والقوة والجمال فى الارض جميعا !

ونعود الآن الى ريفنا الساجي السادر الفقير ، والى حقوله الصامتة الساكنة الخيرة ، والى شمسه الوفية الدافئة ، والى بداوته القانعة الراضية فى ظلال الدعة والسكون ، وفي آثار ومخلفات الأجيال الغابرة والعصور الدابرة

ما أجمل تحية الشمس لأبناء الريف ! وما أجلّها حين تطلع من خدرها وتتلفت من حولها ، كالحسناء المفتونة بسحر جمالها وبسلطان دولتها على القلوب ، تصحو من نومها وتنهض من سريرها ، تتزيل أعضاؤها من فتور النوم ، ويتراخى جسمها ويتهدل من كسل الراحة وسكرة اللين ونعومة الرخاوة ، تظهر على عيونها الدعج الناعسة الفاترة ، والنائمة اليقظة ، والمتبلدة النشطة ، وعلى جفونها الخامدة الساكرة ، وفي نظراتها المتكسرة الحائرة الحيية !

ما أجملها حين تتسلل من مطلعها على أبناء الريف من وراء الأبنية الواطئة البادية البسيطة الفقيرة ، ومن خلال أوراق الشجر وسعف النخيل وأغصان الصفصاف المتهدلة في الترع الساجية ، ومن وراء الحقول المحسنة الخضراء ، والقباب البارزة بين الدور في القرية ، وابراج الحمام العالية فتنعكس على الماء الجاري فى القنوات وفي الترع ، وعلى سنابل الزرع الأخضر وأعواد الأذرة الجميلة الجليلة فى خضرتها وفي خيرها وفي زهوها ، وعلى وجوه الريفيات

الجميلات حاملات جراتهن المتمايلة المستهترة المتكبرة بمرح ونشاط ، في تيه وعجب وتدلل ، نعم ! ما أبهى طلوع الشمس على وجوه الجميلات في الريف مبكرات في أعمالهن خفيفات الى تحية الشمس الخيرة مصدر الدفء ومبعث الحياة .

جميل جداً ذلك السرب من النساء الريفيات ماشيات على شواطيء الترع يخطرن فى زهو وفي نشاط ، مبتسمات فى غير كلفة ولا صنعة ، مطمئنات الى حياتهن البسيطة الخشنة ، غارقات فى نعيم الجهالة المظلمة ، خارجات مع الشمس الساطعة يحيين معها الآله العظيم فى ملكوته وفي صنعه وفى ابداعه ، وكم في الريف الساجي الهادىء من حسان ذهب جمالهن بين ضنك الفقر وأوجاع الأسى ، وبين أغوار الاهمال وظلام الجهالة ، واختبأن بين القرى والكفور بعيدات عن عوالم النور وعن معارض الجمال وملاعب السحر !!

ويا ما أجل منظر الفلاح المصري النشط خارجا مع الشمس الى حقله وعمله يقود أمامه ماشيته واغنامه آلة خيره وبركته ، ويجر محراثه الخشبي البسيط الذي تغير وجه الارض وتطور كل من عليها ، ولا يزال هو هو فى بداوته وفي بساطته كأنه يهزأ من تلك المدنية ومخترعاتها وخيراتها !

يخرج ذلك الفلاح النشط مبكرا من داره حاملا على كتفه فأسه وغلقه وأمامه ماشيته ، غير مدخر لنفسه راحة ولو قليلة من عناء العمل ، ممتلئا بوفرة النشاط وبحب العمل وبالشعور بالواجب

الذي هو أساس كل الأخلاق جميعا كما يقول (كانت) ، واشهد الله أنه قلما يوجد من كل صنوف الفلاح في العالم مثل الفلاح المصري نشاطا وجلداً وصبرا على الكدح والعمل ، وتحملا للبؤس وللكد وللألم ، فهو في الحق (فخر مصر وسيدها)

أول ما تشهد في الريف اذا ما تسللت أشعة الشمس من بين أوراق الشجر ووراء القباب والدور المتواضعة جماعات الفلاحين : هذا يحمل محراثه ، وذاك فأسه ، وآخر يسحب ماشيته ، وآخر اغنامه أو جمله ، وجمعا عديدا من الاطفال الصغار الذين خلقوا من الارض ليعيشوا على الارض وليموتوا في الارض دون أن يعرفوا غيرها عالما أو وجوداً ، يخرجون الى الحقول والغيطان ، ويعلمون الفلاحة والزراعة ولما يشبو عن الطوق ، ولما تحتمل أبدانهم آلام الكد وارهاق العمل ، حاملين معهم غذاءهم هم وآباؤهم فى مناديل أو فى أسبات من الخوص ، وسربا منتظما من النساء تارة ومنتثراً أخرى ، ما بين حاملات جراتهن من الترع ، أو خارجات مع أزواجهن الى الحقول يشاركنهم فى تلقيط أذرة أو جنى قطن أو حصاد قمح أو نقل سباخ أو حمل ردم أو ري زرع

هذا المشهد الجميل من النشاط المفرح الفاخر المتسرب في الرجال والنساء معاً والأطفال أيضا ، هو أول ما تشهده في الريف وتحدث نفسك عنه حديث الأعجاب بل الافراط في الأعجاب ، لأنك تشهد فيه روح الشعور بالواجب والأيمان بالعمل وبالحياة ،

في تلك الطبقة الجاهلة البسيطة النشطة العاملة التي تدر الخير على البلاد لبناً وعسلا ، ولكننا نجهلها ونزدريها صلفا وعتواً ، قتل الأنسان ما أجحده وأكفره !!

هذا الشعور بالواجب الذي تشهده فى الفلاح هو خير ما فى الريف ، ويا ليتنا جميعاً نشعر بهذا الشعور ! إذن لتغير وجه تاريخنا ، وإذن لأصبحت الأمة كلها فرداً واحداً يشعر بشعور واحد ويخضع لقانون واحد : هو قانون الواجب لأنه واجب ، ياليتنا نعمل كأن كل عمل من أعمالنا — كما يقول « كانت » — سيصير قانوناً عاماً ، يا ليت كل فرد منا يقوم بواجبه في حدود وظيفته ومواهبه واستعداده ، إذن لأنتجت هذه الجهود الفردية المنظمة خصبا وحياة وقدرة ونوراً ! ! !

واذا خرج الفلاح الى حقله فى الصباح خلع ملابسه هناك ليستعد للعمل المجهد ، فتراه واقفا فى غيطه أما باحثا مفتقدا مسارب الماء ليروي زرعه ، مجتهداً في أن يزيل كل عائق أمام الماء ليجري خالصا حراً فى القنوات الضيقة ، وأما جالساعلى نورجه في (الجرن) يدرس قمحه او برسيمه أو فوله ، وفى أي وقت ؟ في ساعة الظهيرة حيث لا ترحم الشمس أحداً ومع ذلك تراه حافي القدمين عاري الرأس ، متحملا حرارة الشمس بجلد كريم وصبر جميل غير ناقم على هذا الوجود ونظامه الذي يضطره أن يسلك في سبيل العيش والحياة هذه المسالك الخشنة الوعرة ، بل مستمرئا كل هذا الجهد

وهذا الألم فى سبيل أن يحيا وأن يعول أولاده المساكين !

وفي الوقت الذى أراد القضاء الاعلى ان ينام فيه ناس ويتقلبوا على الدمقس المفتل والاسرة الناعمة الهزازة والوسادات الحريرية الرخصة .

فى هذا الوقت يجلس فيه صاحبنا الفلاح على نورجه هذا هو وماشيته الامينة الوفية ، تحت نار الشمس ووهجها وسفع التراب ، ليغذي العالم بخيرات غرسه وبركات زرعه ، وليحييهم من عرقه ومن شبابه ومن قلبه ودمه بل من حياته جميعا .

تراه فى حقله مشمرا عن ساعديه بجد ونشاط ومرح حاملا فأسه يفلح بها الارض ويضرب بها بين الحشائش لينقذ زرعه من شرها ، منحنيا بظهره لا يرفعه الا ليأخذ نصيبه من الراحة ولو قليلا ، ممسكا بمحراثه الخشبي العريق في القدم يشق به الارض شقا ويقلب عاليها سافلها ، أو يحمل الردم والسباخ لاولاده الصغار الذين يشاركونه في عمله ويقاسمونه تعبه وهموم عيشه ، ويظل في عمله هذا حتى اذا حان الغداء حملت اليه امرأته سلة من الخوص بها بضع ارغفة من الأذرة او الحلبة ، ومعها قطعة من الجبن او جانب من المش والبصل أو (المخلّل) أو العسل الاسود او اللبن الرائب ، وهذا هو غذاؤه معظم الايام ان لم يكن كلها ، ولكنه قانع بعيشه راض بهمومه على خشونته وبساطته .

واذا ما آذنت الشمس بالمغيب والتهب قرصها وراء الاشجار

وبين دكنة السحب ، عاد صاحبنا من عمله ومعه ماشيته وآلاته ، وعلى وجهه ابتسامة الرضي والبشر ، وجلال الايمان وخشوعه ، يجري في عروقه دم النشاط حاراً دافقا كأنه لم يعمل شيئاً في نهاره يظلم هذه الابتسامة أو يغضن هذا الوجه الباسم الراضى ، وكأنه بذلك عاهد اخته الشمس على ألا يخرج الى عمله ألا معها مشرقة ، ولا يعود من عمله الا معها غاربة ، وفاء دونه أي وفاء ، من الفلاح لشمس الفلاح !

ولكن هذا الفلاح الهادىء الباسم في غيطه وعمله ، تراه يفور فائره اذا علم أن دور الماء أتى واعتدى عليه غيره ، بحيث يعوقه عن ري زرعه ، واحياء خلاصة لحمه ودمه وحياته جميعا ، هنا تختبىء نفسه الطيبة الهادئة الوديعة الى حين ، وتظهر نفسه الشرسة الباطشة ، يحاول أن يمنع هذا المعتدي على الماء ، فان أبى فليس أيسر لديه للبطش به من (النبوت) يشج به رأسه أو يهشم أضالعه ، حتى لو استحكمت الحلقات وضاقت به آلات البطش والضرب ، فألى الفأس يقضي بها عليه ، فالماء حياة زرعه وزرعه حياته هو !

ندع الفلاح الآن قليلا ونعود الى شمس الريف الجميلة ثانية ، فلقد شاهدناها مشرقة باسمة جميلة ، فى يقظتها وفي مطلعها ، وفي فتنتها وفي بهرها ، بين ضباب الفجر وبلل الندي ، وروح الازهار والرياحين ، فلنشاهدها غاربة باسمة أيضا ، ولنقف أمامها نقدم

فروض التقديس والعبادة والخشوع ، لخالق هذا الكون العظيم فى سعته ، العظيم في سره ، العظيم في صمته وفي افصاحه وبيانه

شمس الريف الجميلة الجليلة العظيمة ، معبود اجدادنا في اعماق القدم وطفولة الزمن ، يعبدون فيها الدفء والحرارة والحياة والقوة والخير جميعاً ، هذا المعبود العظيم للفراعنة العظام ، وهذه « القوة » العظمى المقدسة ، لأولى الجبروت والقوة والقداسة

هذه الشمس الجميلة المهيبة المقدسة ، لن تراها جميلة حسناء فاتنة جليلة ساحرة في خير من الريف ! ما أجملها وما أجلها حين تتوارى فى صفحة السماء الزرقاء ، فاذا بالزرقة حمرة ، واذا بالحمرة جمال وجلال وفتنة وقداسة وعبادة ، وما شئت من فنون السحر والبهر ! ما أجملها حين يتلهب قرصها الاحمر الوردي فى أتون السحب المتقطعة المتناثرة اللاهية ، في قتام مهيب حينا ، وفي نور جليل نقي حيناً آخر ، فى هذه الحمرة الوردية أو هذه النار البرتقالية ، يتمثل قداسة الماضي وطفولته وقدمه ، وعظمة الحاضر وقوته ونشاطه ، وآمال المستقبل وأحلامه وأسراره ، وفي هذه الصور من القداسة والجلال والعبادة ، لآلهة الدفء والحرارة والحياة ، وفى هذا الماضي والحاضر والمستقبل ، تتجلى « وحدة الوجود » ، ويبرز « الكل الاعظم » متآلفاً متآخياً مع (الجزء الصغير) ، مع العضو (المنفعل) أو مع القوة (السالبة)

يعود مع الشمس كما خرج معها جماعات الفلاحين بما شيتهم من

ابقار وجاموس ، وبحميرهم ، وبأغنامهم وبكلابهم أيضا ، وبصغارهم راكبين الحمير أو على ظهر الجاموس ، وكم هو جميل صوت الفلاح ! ، صوت تتمثل فيه الطمأنينة النفسية والرضى والقناعة ، وهو عائد من عمله ساعة الغروب يسلي نفسه بتلك الاغانى الريفية الجميلة في براءتها وسذاجتها !

هذه الحركة الحية الشاملة كل نواحي القرية نهارا ، وهذه الجموع العديدة من الرجال والنساء والاطفال ، لا تلبث كلها أن تهدأ بعد الغروب وتسكن الى الدور تستجم فيها من العناء ، وتجد فيها الدعة والراحة والسكون ، فلا تعود تسمع صوتا ولا جلبة ، ولا نهيق الحمير ولا غثاء البقر الذي كنت تسمعه في النهار ، فالآن ساد السكون ، وتسلم الليل زمام الحكم ، وعم الظلام الداجي الرهيب وهدأت الحركة ، وسكن الزوج الى زوجه وأولاده يجد لديهم راحته من عمله وهناءة عيشه وسلوى همومه وتعبه ، وأين يجد الآباء هناءة العيش ورفهه ، في خير من عناية الزوجات وعبث الأبناء ولهو الأطفال ! !

لعل خير ما فى ريفنا هدوءه وسكونه ! فهذه القرية التي كانت مظهر نشاط شامل ، ومعمل حركة دائمة وحياة دافقة ، قد خيم عليها الهدوء وعلتها رهبة الصمت البليغ وخشوع السكون المهيب ، وسكن الناس الى ديارهم الفقيرة فى ذلك الليل الرهيب رهبة الموت وفزعه ، ويا ما أرهب الليل في الريف ! سكون تام عن الحركة ،

ونوم كأنه موت ، أو موت كأنه نوم ، أو صلاة صامتة وتسبيحة دائمة ، وعبادة خاشعة ساكنة ، وفناء الوجود كله في آله الوجود وخالق الكون ورب السموات والأرض ، فناء حي بطيء مستمر ، قوي فى ضعفه ، سريع فى ريثه وبطئه ، شاعر في خموده وسكرته ، عالم في جهله ، متعبد فى صمته !

فى هذا الصمت الخاشع لم تعد تسمع صياح الأولاد في الغيطان ولا صوت (الفرقلة) يضرب بها الفلاح بقرته أو جاموسته ، ولا يقرع أذنك صوت الحمير المنكر ، ولا غثاء الجاموس والبقر ، ولا صياح البط والأوز في الترع ، ولا شجار جماعات الفلاحين ولا مشاتمة النساء لسبب ولغير ما سبب ، فكل هذا قد هدأ الى حين بين بطون الليل وغياهبه ، واستكن في ظلمائه ودكنته ، واطمأن الناس الى الحياة هادئة راضية وديعة آمنة في سواد الليل ، بعد ان أصابهم الجهد ونال منهم اللغوب في بياض النهار ، وعدت لا تسمع حفيف أوراق الشجر ولا هسيسه ، يلاعبها الهواء وتعبث بها أشعة الشمس اللاهية . ولكن عم السكون كل شيء ، ونام كل شيء عن الحركة ، وباتت القرية ساكنة هادئة في ظلمة الليل الرهيب متهجدة متعبدة قانتة ، تحمد الله على ان حبا أهلها فيض الزرع والخير ونعمة العافيه وسعادة الطمأنينه والرضى ، ومتى تحلو العبادة وترفع الأدعية خالصة طاهرة فى خير من رهبة الليل وظلمته ؟ ومتى يناجي الآله وتصعد اليه الشكايات والآلام والجراحات فى خير من نوم

الطبيعة والفناء الحي للوجود ؟ وأين يكون الليل أشد رهبة وأبلغ صمتاً وأكثر وحشة منه في الريف ؟

هذا فلاح مسكين شقي ، جلس الى مصلاه المتواضعة المفروشة بالقش وبأعواد البردي وبالحصير البالي . على حافة الترعة ، في سكون الليل ورهبته وفي نوم الوجود وغفوته ، يقدم لربه فروض العبادة والخشوع ، ويسأله أن يفرج كربه وأن يجيب سؤله وأن يشفي مريضه ، وهذه امرأة مات زوجها عن أطفال صغار لم يعرفوا بعد غدر الزمن ولا هموم العيش ولا جهاد الحياة ، ترفع أكفها ضارعة الى الله ملاذ البائسين ورب الشاكين السائلين ، أن يكنف هؤلاء الصغار برحمته وعنايته ويجود عليهم بمنه وفضله ، وأن يبسط لهم من الرزق والخير ، فهي أعجز من أن تعولهم وأفقر من أن تقوم بعيشهم ، وهو تعالى أكرم مسئول !

وهذا فلاح آخر جلس أمام داره بعد ان نام أطفاله ، وبعد ان سجى الليل وابتدأت القرية فى صلاتها وعبادتها ، يسأل الله بصوت يقطعه ذلة البؤس وتخنقه عبرات الأسى وأوجاع الشقاوة ، أن يمكنه من تسديد ديونه لمالكه الذي لا يرحمه ، وأن يرفع ثمن القطن هذا العام حتى يتيسر عيشه وحتى يمكنه أن يكسو أولاده وزوجه من عريهم ، وأن يبارك له فى محصوله ليعوض بذلك من محصول العام الماضي ، حيث خانه الحظ وعاكسه القدر واستبد به المالك !

فى هذا الهدوء الشامل الرهيب ، وفي هذه الصلاة الخاشعة

الصامتة ، تسمع صوت المؤذن في المصلى يؤذن بصلاة العشاء فتهزك هزة الأيمان وتملك عليك كل قواك وكل وجودك قداسة العبادة وجلالة الخشوع ، فترهف بأذنك مع القرية الهادئة الساكنة ومع النبت النائم المتعبد ، ومع أوراق الشجر الناعسة المسبحة القانتة المرتلة ، ولا يسعك إلا أن تستسلم ، وإلا أن تندمج وتتحد مع هذه « العابدات » ، والا أن تشاركها في صلاتها وفي تراتيلها ، والا أن تفنى معها في فناء الوجود كله في ذات الله العليا المقدسة !

يسلمك هذا الصوت الخاشع الجميل وهذه الصلاة الدائمة وهذا الفناء الحي الى الذكريات العديدة ، فتذكر نفسك وتذكر علاقتك بربك وواجباتك اليه ، وتقودك هذه الذكريات الى أن ترفع رأسك وتحدق في السماء وتجتلي جلالها مزدانة بالنجوم المبثوثة المتألقة في صفحة السماء الدكناء في ذلك السواد الرهيب ، فتفكر فى نفسك وفى وجودك ، وفي هذا الكون اللانهائي العظيم الذي تعجز عن ادراكه وفهمه عقولنا ومداركنا وكل ملكاتنا ، ومع ذلك يدعونا الغرور والكبرياء الانسانى الى أن نظن أن عقولنا قادرة على ادراك كل شيء وتحقيقه ، وأن مشاعرنا فى مكنتها أن تحس وتشعر بكل مافي الوجود والكون ، وفي الحق أننا لا نفهم قليلا ولا كثيراً حقيقة من حقائق هذه الوجود فهما حقاً صادقاً يمكننا أن نطمئن اليه ونقتنع به ، فما يدرينا أن هذا حق وما يدرينا أن هذا الذي نسميه

« عقلا » قد لا يزيد معرفتنا تذبذباً وهدوءنا قلقا ويقيننا شكا ، وما يدرينا أن حكمه صحيح أو خطأ ، سليم أو سقيم ؟

يقول أناتول فرانس : « كل ما خطر ببالك فالكون بخلاف ذلك » فاذا كان هذا حقاً ، فبماذا ندرك هذا الكون ونفهم هذا الوجود اذا كنا لا نطمئن لا الى حكم العقل ولا الى شعور القلب ؟ أهكذا قضى علينا بأن نعيش مشردين ملفوظين أمام هذا الباب القدسي الموصد أمامنا ، محرومين معرفة الوجود الذي نعيش فيه والنور الذي نراه ، غرباء حتى عن « أنفسنا » ؟ ؟

أهكذا قضى علينا أن نصرخ ونهتف مع المعري حين استحكمت عليه حلقات الحيرة وحفزه التشوف الى المعرفة فصرخ صرخة من اللحم والدم ، من نسيج الأسى وذلة الضراعة

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي
يراد بنا والعلم لله ذى المن

الى أن قال

طلبت يقينا من جهينة عنهم
ولم تخبرينى يا جهين سوى الظن
فان تعهدينى لا أزال مسائلا
فانى لم اعط الصحيح فأستغنى

أين عقولنا ومداركنا وقلوبنا من هذا الملكوت الواسع وذلك العالم الكوني اللانهائي العظيم ؟ ماهذا الكون ؟ وما كنهه ؟ وما

غايته ؟ وما مداه ؟ ومن نحن في هذه العوالم الكونية الواسعة العديدة؟ وماذا وراء هذه السماء وهذه النجوم ؟ ماذا تحت هذه الارض ؟ وماذا عند هذه الكواكب ؟ وماذا وراء هذه الحياة ؟ الموت ؟ وما الموت ؟ وماذا بعده ؟ ولماذا ؟ وما لون هذه الحياة الاخرى الموعودة ؟ وما صلتها بحياتنا الاولى ؟ واذا كان الموت هو خاتمة حياتنا الاولى فما هي خاتمة حياتنا الثانية ؟ وما البعث ؟ وما الحقيقة؟ وما الوجود ؟ وأين ينتهي ؟ ومن نحن ؟ وماذا كنا ومن أين أتينا والى أين نذهب ؟ وماذا كان الوجود وماذا كانت الحياة ؟ وماذا يراد بنا ؟ وما غايتنا من حياتنا ! وماذا نعرف ؟ لا شيء !

تلك وجوه اسئلة قد تمر بخواطرنا اذا رفعنا رءوسنا الى السماء نجتلي سرها ونفكر في جلالها وعظمتها ورهبتها ، ولسنا نملك في هذه الحياة الا أن نسأل والا أن ننادي ، فنحن نناديه تعالى كما يقول لامارتين — وان لم يسمع ، فأن عظمتنا فى أن ندعو وعظمته في ألا يجيب »

الى أي حد نصدق العقل ونقبل حكمه راضين مطمئنين ؟ وترى ماذا يحل لنا مشكلة الوجود وسر الخليقة ومسألة المسائل : هل هو العقل ؟ هل هو القلب ؟ هل هو الايحاء ؟ هل هي الغريزة ؟ هل هو الالهام ؟ هل هو الكشف أو الوجد ؟ وبماذا نعرف « السر ؟ بماذا نفهم « المجهول » ؟ هل بالحب كما يقول « تاجور » والمتصوفة ؟ أو هل بالعلم ؟ أو بماذا ؟ أو ترى أن « المعرفة » ليست

من حقوق الانسان او اختصاصاته في هذه الحياة ؟ لعل هذا هو الأقرب الي الحقيقة الضائعة « المجهولة » !

لقد نقد « كانت » العقل البشري في كتابه (نقد العقل المجرد) وأظهر أنه لا يعيننا على المعرفة ولا يساعدنا على الوصول الى الحقيقة وأنه معرض للخطأ فى حكمه وأنه لا يرينا الا صورة الحقائق لا كنهها وانه لا يجدر بنا ان نتلقي حكمه بالقبول الأعمي وبالاستسلام المطلق ، واستنقصه أيضا « برجسون » في كتابه (التطور الخالق) وبين فيه ان عقولنا وحدها عاجزة كل العجز عن استظهار حقائق الحياة وفهم الكون فهما يرضينا ويقنعنا ، وأننا لكى نفهم الحياة ونستقريها فهما كاملا واستقراء مرضيا ، يجب ان يكون فينا « اللاوعي » النبات وغريزة الحيوان وبصيرة الانسان !

هذا ولا يزال استنقاص العقل كمعيار ثابت للحكم على الاشياء وللوصول الى الحقائق سمة هذه العصور او هذا العصر الذى تزعزع فيه الثقة بكل شيء لا يتفق ونظرية التطور الذي هو سنة الحياة ، هذا العصر الذي اصبح لا يعني الا بالواقع المحسوس والذي اخذت تتزعزع فيه الثقة بالعلم وبما أخرج للناس كهاد يهدينا جميعا الى ادراك اسرار الانسانية والى فهم الوجود والى علاقة الجزء بالكل والفرد بالوجود وبخالقه الاعظم ! وغاية آمالنا أن يهتدى هذا العالم الجديد الى النور الذي يكشف له ما خفى من حقائق الوجود وما استبهم من اسرار الكون ، وان يكون نورا ينير العقل ويرضي القلب ويقنع

الروح ، نورا ينقذ الانسانية من هذا الظلام الروحي الذي تتخبط في غياهبه ومن هذا الأسر الذي تعيش فيه ، حتى تؤتي آثارها وتنتج ثمارها فى ظلال الدعة والطمأنينة واليقين والسلام والحب والخير والايمان

واذا ما أخذ الليل الساجي بمصر استاره ويرفع نقابه ، وانبلج نور القمر يتحلّب بين اشجار السنط والصفصاف والكافور ، استيقظ الفلاح من نومه على صوت المؤذن يدعوه الى الصلاة قبل ان تطلع الشمس على العباد تحييهم تحية الصباح السعيد ، واشتركت ديكة الصباح في الدعوة الى اليقظة والى الصلاة ، وما أجملها تقف على اسطحة الدور بأعناقها الطويلة وريشها الجميل توقظ الفلاحين من رقادهم وتحثهم على القيام بواجباتهم والصلوات لربهم ! وفاء للفلاح أى وفاء حتى من الديكة ! وكم يكون جليلا خاشعا رهيبا نداء المؤذن : الله اكبر ! والناس نيام والطبيعة كلها متعبدة قانتة ناعسة يقظة !

الله اكبر ! الله اكبر ! الله اكبر ! الله اكبر في جلاله وعظمته ، الله اكبر في خلقه وابداعه ، الله اكبر في رحمته وغفرانه ، الله اكبر في نعمه واحسانه ! هنا يغمر النفس خشوع الرهبة وجلالة الايمان وقداسة الدين ، هنا تتحد النفس مع الله وتفنى فيه

اتحاد حب ومعرفة وولاء ، هنا امام هذه الكلمة المقدسة العظمى الجليلة الرهيبة الجامعة ، وامام هذه الطبيعة الشاعرة الناطقة في صمتها

وفى كلامها وفي حركتها وفي سكونها بعظمة الله وبجلال الكون وفسحة الوجود ، هنا تنطوى « النفس » وتنحنى لتفنى في الله وتندمج في الطبيعة وتجد « نفسها » وتشعر « بذاتها » وتخرج من « الافيديا » (AVIDYA) من هذا الجهل بالشعور بالنفس كما يقول « تاجور » ، الى النور والى الحب والحق ، هنا تهتف النفس صائحة فرحة باسم الله وتدع من مثل « داروين » رجلا مؤمنا وتضطره أن يصيح وان يهتف : يستحيل على العقل الرشيد ان يمر به خلجة من الشك في ان هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغات وتلك الانفس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء لان العماء لا يخلق نظاما ولا يبدع حكمة ، وذلك اكبر برهان عندي يقوم على وجود الله» هنا تنهزم العدمية (النهيليزم) ويتبدد الألحاد ويعلو الحق والايمان !!!

لقد انسيت أن اذكر حين تحدثت عن الفلاح أن اخلص وأوفى صديق اليه هو كلبه ، فهو في الليل اما ان يأخذ مقعده على سقف الدار واما امام بابها ، ولا تغفل عينه عن حركة يشعر بها ولو هسيسا ، فأن رأي ولو طيفا أو خيالا ولو لم يكن في حارته فضحه بالنباح العالي ، ثم تسرى عدوى النباح فتغدو القرية كلها نباحا وصياحاً ، وفى النهار يخرج مع المواشي أو مع الاغنام ولا يعود الامعها ، واذا حدث ان اعتدى على سيده احد دافعه عنها الكلب قدر جهده واستطاعته ولو تذهب في سبيل الذود عنها وعن صاحبه حياته ولو يخترم الرصاص قلبه أو يمزق جسمه !

فأين وفاء الانسان من وفاء الكلب ؟ وأين غروره وصلفه من شجاعة الكلب وتواضعه ؟ وأين غدره وخيانته من اخلاص الكلب وأمانته ؟ فاذا ذكرت وفاء الكلب لصاحبه فى الريف قادتنى الذكرى وسرى بى الخيال والخاطر الى كلب « لا مارتين » وكيف خاطبه ولاطفه وتحبب اليه حين قال له : « ان كنت أيها الكلب راقداً فى مواطيء النعال فلا أذكر ان قدمي مسّتك يوما ما احتقارا، كما اني لا أذكر اني زجرتك يوما بكلمة تجرح حنانك وشفقتك »

وليس كلب « لا مارتين » وحده هو الجدير بأن يأنس اليه صاحبه ويخاطبه ويجد لديه العزاء والسلوى عما فى الحياة من مكر وخديعة وكذب وغدر ، وليس « لا مارتين » وحده الذي تعوزه السلوى فيتفقدها عند الكلب وعند الحيوان جميعا ، وقد افتقدها عند الانسان النبيل الكريم حتي لم يعد يؤمن بصداقة ولا يعتقد في اخلاص ، بل كلنا « لا مارتين » ، بل كلنا نجد في حياتنا كل يوم وكل لحظة غدر الأصدقاء وتنكرهم ساعة الشدة وتكالبهم ساعة الرخاء ، وكلنا نهتف مع المتنبي قائلين : « اذا عظم المطلوب قل المساعد » ونصرخ مع المعرى في صرخته المرة

ومن عاش بين الناس لم يخل من أذى
بما قال واش او تكلم حاسد

وكل منا رأى فى تجاربه الخاصة نكران الجميل ودناءة الأصل والخيانة من أعز الاصدقاء عليه وآثرهم لديه ، وكل منا هزأ وسخر

وشك شكايكاد يكون انكارا لصداقة الانسان المزعومة ولوفائه الكاذب واخلاصه الاجوف ، وبحث عنها عند الحيوان الذي لا يعرف الكذب ولا الخداع ولا الزلفى ولا الرياء ، وأصبح كل منا تقريبا « لا مارتين » نجلس الى كلابنا والى قططنا الصغيرة الجميلة البريئة نستدفىء لديها بحرارة الوفاء ، ونجد فيها جميل السلوى وحسن العزاء ، وبماذا نعزى نفوسنا في هذه الحياة الطويلة أمام هذه الضروب المختلفة من غدر الاصدقاء وتنكرهم وكيدهم ، ومن خصومة الاعداء وانتقامهم ومن عداوة الزمن وقسوته ، بماذ نرفه عن نفوسنا المعناة وقلوبنا التي طفحت بالغضب وبالسخط وبألوان الهموم وصنوف الأسى ، اذا لم يكن بكلب نلاعبه ونخاطبه ونمارس عليه ونصاحبه ونماشيه ، أو بقطة صغيرة نضعها على ركبتنا ونعبث بشعرها الناعم الجميل ونشاكسها ونلهو بها ، ونجد لديها راحة الجهد وجمال العبث وحسن السلوى وخير البر والوفاء ؟ !

لا أريد ان اترك هذا الفصل قبل أن اقول كلمة عن « حياة اللهو » في الريف ، وفاء للعهد مع القاريء الكريم ان نصور له حياة الريف المصري تصويراً ان لم يكن صادقا كله فهو قريب من الحق والصدق ، وهذه هي بغيتنا وقصدنا من هذه « الأحاديث » او هذه الرسالة : محاولة متواضعة لتصوير ريفنا وفلاحنا للبيئة المدنية التي تجهله ويجهلها

وماذا تتصور أن تكون حياة اللهو في ريفنا المصري السادر

الساكن الذي تنقصه « الحياة » والحركة ، المحروم من كل وسائل الاستمتاع بالوجود استمتاعا مرفها مرضيا ، لقد ذكرت لك أن « أوساط الجمال الحي » في ريفنا المصري ليس فيها الغذاء الروحي الكافي لقلوب طامحة وعقول خالقة محققة ونفوس أبية كريمة كبيرة ، وان معنى « الحياة » عندنا يقدر بمقدار ما تدر علينا الحياة من أرزاق ومنافع وحاجات ورغبات وشهوات ، أما الغاية من الحياة لأنها « حياة » ، أما أنها وسيلة وغاية ومثل أعلى فلا نعنى بهذا قليلا ولا كثيرا ، واذا كنا نفهم الحياة هذا الفهم وننظر اليها بهذا المنظار فقلما نعنى بالبحث عن وسائل الاستمتاع بها استمتاعا يغذي قلوبنا وأرواحنا ويرضي طموحنا وكبرياءنا وآمالنا وقلما نفكر في العناية باللهو والعبث والسلوى وخاصة « بثقافة الجمال » و « برسالة الحب » ونحن بذلك انما نعطل ملكاتنا ووظائف أعضائنا التي حباها الله لنا ووهبنا إياها لنستخدمها في وظائفها ولنستمتع بما خلقت من أجله ونحن بذلك نوحش من حياتنا ونضيق من فسحاتها ونحقر من قدرها ، ثم نشكو منها ونتألم لأنها لا ترضي رغائبنا ولا تجيب حاجاتنا ، ولو انصفنا لشكونا أنفسنا وأنحينا باللائمة والتقصير على عقولنا التي نقيدها بالتعصب والعماية والتقليد ، وعلى قلوبنا التي نغلقها ونظلمها بالجهل والافراط والاسراف في المجون والعبث ، وعلى أرواحنا التي نأسرها بالكسل وبالتراخي وبالهمود ، ثم نتذمر ونلعن نظام الوجود الجائر لأنه لم يجعلنا في عداد السعداء المترفين الرافهين العلماء النابغين

ونصخب ونثور ونكتئب ونحقد ونحزن ونبكى ، ولو كنا قضاة عادلين لشكوناوصخبنا وتألمنا من انفسنا،من بعض أغنيائنا أرباب الأرض والطين وأصحاب المنازل والقصور والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة المكتنزة فى طيات الورق وتحت الوسائد وأحجار البلاط، الذين خلقوا فألفوا انفسهم اغنياء عن آبائهم وأجدادهم فى تلك العصور السود ، عصور الاقطاعية والجبروت والاستعباد ، ثم شراء متع النفوس وحاجات القلوب بالضياع وبالقصور وبالمفادين ، فلم يتذوقوا ألم الفاقة ولا أوجاع الأسى ولاهموم العيش ولا ذلة السؤال ، ولم تخمص بطونهم من الجوع أو تنحل اجسامهم وتستحل ألوانهم من كثرة الشكوى والحاف الرجاء وطلب العون ، ولم تهطل من عيونهم يوما دمعة البؤس ممتزجة بدم الوجيعة وجراح الفقر ، فليس بغريب أن تصم آذانهم أمام شكايات البائسين وأوجاع المحتاجين ، وان تغلق قلوبهم المتحجرة أمام أصوات السائلين وصرخات المعوزين ، وليس بعجيب أن يتصاموا عن استماع صوت « الاصلاح » لأنه لا يعنيهم أصحاب الطين والقصور بل يعنى هؤلاء المساكين الفقراء « عبيد » هؤلاء « الأسياد » في عصر زالت فيه العبودية والسيادة ، وهذا الصنف من الأغنياء الأشحاء الجامدين في مصر يذكرنا بقول صاحبنا « روسو » عن أغنياءفرنسا،قال « لم يكادوا يذوقون لذة الأمارة حتى احتقروا غيرهم وحتى أصبحوا لا يفكرون فى شىء إلا اخضاع الناس واسترقاقهم ، مثل الذئاب المتوحشة التي

لا تكاد تذوق طعم دم الأنسان حتى ترفض أي طعام آخر ولا تتلذذ إلا اذا شربت منه»

ولست أدري ما الذي قدمه هذا الصنف من الأغنياء الى بلادهم التي أثروا من أرضها وابتنوا قصورهم تحت سمائها، وملأوا بطونهم وجيوبهم من ثمارها وخيراتها، ماذا غير تصعر الخدود وانتفاخ الوجوه، وهز الأكتاف وايماءة الرءوس والحديث بالأشارات، والتلوي والتقطع في الكلمات، والخطاب بالأنوف والنظر بالأقدام والركل بالأرجل، ثم طي الأرض والشوارع بالسيارات واللهو بالماجنات الغانيات، وبذر الأموال على الموائد الخضراء وقضاء ثلثي العام كله في الغرب بين الأندية ودور المجانة ومصايد النساء؟

هنا يحضرني قول «روسو» وصرخته العالية المرة حين أذكر وأنا أتألم هذا الصنف من الأغنياء الذي ابغيه وأتصوره حين أكتب هذه السطور، وهو صنف معروف بيننا جميعاً يكاد لا يشعر بشعورنا ولا يتألم لآلامنا، ويكف يده عنا حين يجب أن يبسطها، ويوصد أبواب أمواله المكتنزة أمام صيحاتنا وشكاياتنا في كل خطوات اصلاحنا حين يجب أن يفتحها، قال «روسو»: «ماذا صنعت العائلات التي تسمى شريفة لمجد وطنها أو لسعادة بني الانسان؟ وماذا انتجت في أكثر البلاد التي سطع نجمها فيها إلا أن ظهرت عدوة للقوانين وللحرية وإلا ان أعانت الاستبداد وظلم الشعوب؟»

نعم ! يؤلمنا جداً أن يكون بعض أغنيائنا على هذه الحال فلا يألمون لآلامنا ولا يشعرون بشعورنا ، يؤلمنا أن ينحوا أنفسهم عن الميدان وعن العمل وعن عملية الأنشاء والبناء والأصلاح ، فكأنهم ليسوا منا ولسنا منهم ، وكأن مصر هى وطننا وحدنا أو وطنهم وحدهم لأنهم « أصحاب المصالح الحقيقية » فيها كما أذيعت هذه العبارة في هذه السنين ، يؤلمنا أن يكون في أيديهم طب الداء وعلاج الحال ثم يقعدون ويتنحون ويبسمون ويسخرون !

نعم ! ان شكونا أحداً في كل ما نشعر به من بؤس وضنك واحتقار لمعنى « الحياة » وحرماننا من الأستمتاع بها وجهلنا « بثقافة الجمال » وتكاسلنا عن كل وجوه الاصلاح وتأخرنا عن الأمم التي تجري وتعدو ونحن نزحف ونحبو ، فأنما نشكو أولا هذا الصنف الجامد من أغنيائنا وثانياً حكوماتنا وذلك لأن مصالح البلاد تهم فئة « المحكومين » أكثر مما تهم فئة « الحاكمين » ، لأن المحكوم هو الذي يشعر بالالم وهو يفهم الفقر ويعرف الأسى ويقدر « الأصلاح » ، فعسانا نقبل على عصر جديد يشعر فيه أغنياؤنا بقيمة « الأصلاح » وبالحاجة الى العمل والأشتراك مع الأمة فى كل وجوه السعي والكد والبناء ، ويأخذون نصيبهم من الجد والنشاط وتقديم مواهبهم واستعدادهم وثروتهم لأصلاح هذا « الهيكل » المتهدم وتطبيب هذا « الجسم » المنهد من التعب والمرض ليقوى على الحياة ويصبر على التنازع على البقاء ويثبت فى

« الأنتخاب الطبيعي » ويشع القوة والعمل والخصب والخير جميعاً شرقا وغربا !

ونعود ثانية الى ريفنا ولهوه بعد ان أبعدنا عنه قليلاحضرات الاغنياء .

لسنا نعرف في القرى ما نعرف في المدن من الملاهي والنوادي للتمثيل وللهو وللمحاضرات والمناظرات ، أو مشارب للقهوة وما فيها أوملاعب للنرد والبليارد ، او مراقص للفتيان والفتيات ولمحبي الجمال وعشاق العبث ، ولسنا نعرف فيها دوراً للسينما ولا نوادي للرياضة ولا مكاتب لمحبي الأدب وعشاق الاطلاع ، ولسنا نرى فيها ما نرى في المدن من متنزهات ، ورياض وحدائق باسقة عاطرة بالورود والازاهير غاصة بملكات الحسن وما ملكات القلوب وزينة الحياة الدنيا ، ولسنا نسمع فيها ما نسمع في المدن من أصوات الكمنجة والعود والبيانو (والجازبند) !

يفارقنا كل ذلك اذا ما وطئت أقدامنا الريف المصري ، واذا كان ريفنا ساكنا ساذجا فقيراً من « الحياة » ومن الحركة فكذلك حياة اللهو فيه بسيطة بريئة لاتزال عليها مسحة البداوة الريفية ، لاتحركها بواعث « الحياه » بل هادئة ناعسة حالمة فى فى الماضي الدابر والعصر الغابر ، فلا يعرف الفلاحون من أدوات الموسيقى الا « الارغول » والمزمار والطبل البلدي و « السلامية »، وقد يكون لهذه الموسيقى الريفية جمال ، بل في الحق لسنا ننكر

ما فيها من جمال يملك علينا قلوبنا وحواسنا حيناً ، بنبراتها الريفية البريئة العارية عن كل غموض وتعقيد وحلى ، الهادئة الساكنة المعتدلة الرفيقة كأبناء هذا الوادي المبارك الساجي الحالم ، ولو أنها خلو من المعانى السامية والالهامات العليا والتيارات الروحية النبيلة ، ولو أنها لا « تخلق » جديداً أو توقظ هامداً أو تبعث عاطفة ، لكن مع كل هذا لها جمالها الريفى الصامت البرىء العاري عن كل صبغة وتحسين ، نجنح اليه ونميل حينا ، ساعة تكون عواطفنا هائجة وملكاتنا الحاسة يقظة متعبة في العمل والحركة ، ساعة تكربنا هموم العيش والتفكير فى مصائب الحياة التي تنصب كل لحظة كأنها الغيث الهتون ، هنا تهمد عواطفنا الهائجة فانية في هذه الأنغام البريئة الرقيقة ، فننسى حينا مافي الحياة من وصب وضنك وشقاء !

الأرغول اذن (والسلامية) هما كل ما يعرفه الفلاح من آلات الموسيقى ، وهو كثيراً ما يحمل أرغوله أو مزماره ويترنم به فى الغيطان والحقول الساكنة الحالمة ليرفه عن نفسه عناء العمل ، وليهدهد بها اغنامه ، وهو لا يعرف من ضروب اللهو والسلوى وقضاء أوقات فراغه والاستمتاع بما في الحياة من لذة وجمال ، الا الجلوس على « المصطبة » أو على حافات الترع والجسور ، أو في الطريق يلعب « السيجة » بالأحجار في التراب ، والا « لعبة الحطب » وهي المضاربة أو المبارزة بالعصى الغليظة

ومع فقر حياة اللهو في الريف وبراءتها وبساطتها فقلما يزاولها الفلاح المصري ، لان مشاغل حياته كثيرة تشغله عن ان يأخذ نصيبه من الحياة الدنيا ، من اللذة ومن اللهو ، وكيف له ان يلتذ ويلهو وحياته بطبيعتها لا تكاد تنتهي من العمل طيلة النهار فهو من الغيط الى الدار !

وكم تراه فرحا مغتبطا تنفرج شفتاه عن ابتسامة السعادة والفرح والاستمتاع بالحياة يوم عرس في القرية أو يوم « المولد » أو موسم من المواسم او ليلة من « الليالي » ، هنا تجده يتكالب ويتهافت على مكان العرس او المولد او الليلة ليستمع الى مغن مشهور ، أو غير مشهور ، أو مرتل كبير أو صغير أو منشد في حلقة الذكر ، فيأخذ مكانه بين المستمعين ليرفه عن نفسه ويبرد قلبه ويضيئه باستماع آيات كتاب الله الكريم ، أو قصائد مدح نبيه العظيم ، ثم تفجؤك بل تروعك هبته وصيحاته العاليات الصاخبات ، صيحات الاستحسان والاعجاب ، فيقفز من مكانه او يلقي بما على رأسه من « طاقية » أو « لبدة » في الأرض ، ثم يهرول الى المقرىء أو المغنى طالبا منه اعادة ما يقوله وينشده ، لأنه حرك هامد عواطفه ، وأيقظ نائم حواسه وأروى قلبه الصادي المغلق أمام منافذ الجمال والفتون واللذة .

واذا أردت أن تتحقق من « يوم » الفلاح فهو يوم المولد للأولياء ، فتراه يبرح قريته ويتوجه الى مكان المولد مهما كان

بعيداً ومهما كانت الطرق اليه ملتوية عسرة ، وقد يسافر له خاصة ، وقد يقترض من أجله ليوزع على الغانيات الساقطات بعض ما يقترض ثمنا لابتسامة ماجنة فاسقة أو قبلة أمام الأنظار جميعاً من رجال ونساء وما الى القبلة من حاجات النفس الوضيعة السافلة ورغائبها الساقطة القذرة ، نفس لم تهذبها التربية ولم يشذبها المجتمع ، والبعض الآخر يشتري منه جانباً من « الحمص » أو « حب العزيز » أو « الحلاوة السمسمية » لزوجه وأولاده ولافراد عائلته من أقارب وأصهار ومن كل ذي نسب ورحم ، واذا ما وصل الى « التياترو » أو الى « السرك » بمعنى أدق ، عرضت عليه المهازل والمساخر التي تلائم عقليته المستعدة للهزل وللسخرية ، وهناك تقع عيناه على أشد المناظر فحشا وأنكرها فسوقا ومجانة ، وهو مع ذلك فرح مغتبط لأنها تلائم شهواته وترضي عواطفه وتشبع ميوله ، وهناك تعرض عليه رقصات البطن الماجنة الفاحشة من بنات الخلاعة والهوى الفاسق ، وهناك يلقى على سمعه وعلى سمع رجال الادارة أيضا أغان وأدوار كلها الفحش والفسق ، وكلها مما يحرض مباشرة وجهراً على هتك ستر الحياء وعلى الأغراق فى المجانة والفسوق وما اليهما ، ولا يبالي أصحاب هذه الملاهي أو هذه « الخواميز » بمعنى أصح وأقرب الى الحق بوجود نساء بين الرجال يشهدن هذه المناظر ويسمعن هذه الأغاني ، يشهدن رجلا يحتضن غانية ويبصرن غانية تتلوى وتهتز فى حركات تهيج العواطف وتوقظ الشهوات ، ويسمعن

أغاني تحرض تحريضا صريحا على ما ينزل بالنفس وبالاخلاق الى أحط ما يمكنها أن تنزل اليه ، ولكن لماذا يبالون وهم يرون في عرض هذه المشاهد وهذه الأغاني رواجا لسوقهم وربحا أي ربح لتجارتهم؟ ولماذا يتحرجون وعواطف بعض النساء نفسها تريد ذلك وميولهن تميل الى هذه الأغاني الماجنة وتلك المشاهد المغرية ، وأن بذلن كل جهودهن ليخفين عواطفهن الباطنة وشعورهن الداخلي من تستر واصطناع الحياء وادعاء الخفر ؟

واذا عرفت ان فلاحنا يرقص طربا ويطير فرحاً لأبسط منظر من مناظر اللهو ، فلا يأخذك العجب لو رأيت رجال القرية ونساءها وأطفالها خرجوا جميعاً من دورهم مهرولين ليسمعوا ما يحكيه « الفونوغراف » ، واشهد الله شهادة لاحنث فيها ولا كذب ، أني قد كدت أبكي أسفا لعقلية جماعة من الفلاحين والفلاحات ولحرمانهم من موارد اللهو وأمكنة الاستمتاع بالحياة والقدرة على التسلية ، يوم أبصرت هذه الجماعة في قرية صغيرة من قرى ريفنا المصري لا تزال حية ترزق حتي كتابة هذه السطور ، ابصرتهم جميعا قعودا ووقوفا أمام « الفونوغراف » ينظرون بلهفة وبذهول الى ذلك « الانسان » الذي يختبيء في نفير « الفونوغراف » ثم يغني مايردده هذا الفونوغراف ، ثم يحاولون أن يتعرفوا كل شيء عن هذا الانسان المختبيء ، واني لأذكر أني رأيت بينهم امرأة عجوزا تتراجع الى الوراء وجلا وخوفا لأنها كانت قدسمعت « اسطوانة »

تحكى شجاراً وعراكا فخافت أن تمسها عصا من عصيهم أو لطمة من لطماتهم ، : عقلية مسكينة جاهلة تستحق الرحمة والشفقة

لقد ذكرت أن آلات الموسيقي في ريفنا هي الأرغول والسلاّمية ونسيت أن أذكر عاملا ثالثا مهما في حياة اللهو في ريفنا المصري لا يخلو من خطر واهمية ، ذلك هو « الربابة » ويقابلها فى المدن « الكمنجة » ، واذا كنا نتقبل الاصوات والأغاني وأدوار الموسيقي بآلاتها المختلفة ونستحسنها ونسوغها بحسب ثقافتنا وتكويننا العلمي وتربيتنا الخلقية وبحسب استعدادنا لقبول الالهامات العليا وشعورنا بسلطان « الجمال » وادراكنا « للعالم الباطني » ، أقول اذا كنا كذلك فليس بعجيب أن تكون « الربابة » عند الريفيين ولدي العامة أشد من « الكمنجة » تأثيراً فى العواطف وامتلاكا للقلوب وللحواس جميعاً وأدعي الى ترقيقها وتهذيبها ، ولشد مايهرع الريفيون الى ذلك الذي يسمونه « شاعراً » ويجلسون حواليه وتعتلى النساء أسطحة الدور ويترامي الاطفال والاولاد تحت أقدام الرجال ، ثم يجلس هذا « الشاعر » على دكة خشبية ليظهر بين القوم ، ويمسك ربابته ويبدأ بتجربة الاوتار ثم يشفعها « بكحة » تتوالى المرة بعد المرة فيرهفون له آذانهم الصاغية ويسود عليهم جميعاً السكون وكأن على رءوسهم الطير !

وهنا يبدأ هذا « الشاعر » بمديح النبي عليه السلام ، ولا يخلو هذا المديح غالبا من « التغزل » أو التشبب به ، فهو جميل ،

أكحل العينين ، أدعجهما ، بهما حور ، احمر الخدين ، متورد الوجنتين ، دقيق الفم ، لؤلؤي الثنايا ، ياقوتي الشفتين ، والى غير هذا مما هو خليق بالحسان وبالغيد الجميلات لا بنبي عظيم صاحب دين كريم ودستور اجتماعي كبير خطير ، لا بمحمد صاحب « الرسالة » الكبرى ونبي الكتاب الاعظم ، ومن العجيب بل من المخجل حقا أن نسمع في هذا العصر الذي نعيش فيه وفي سني تلك النهضة التي نهضناها والخطى التي خطوناها ، أن نسمع عن « النبي » من الوصف ما نسمعه من المجنون عن « ليلاه » ومن كثير عن « عزة » ، ان هذه لا كبر وصمة تتنزلها بديننا وأشد جريمة نرتكبها ضد « نبينا » ، ولقد حان الحين لأن نعرف عن « النبي » ما يليق باسمه العظيم وبدينه القويم وبرسالته الكبرى وبمذاهبه وتعاليمه الاجتماعية الروحية الفلسفية الخالدة أبد الآبدين وإذا ما عرفناه حقا وفهمناه كما يجب ان نفهمه ، هنا يكون حبنا له وصلتنا به واندماجنا فيه وتتبعنا وخضوعنا لتعاليمه ولسنته ، اقوى وأثبت وأصدق من هذا التغزل المخجل وهذه الالفاظ الحقيرة ، ولن يكون « حب الجهل » كحب المعرفة والفهم والأدراك » !

ثم يتطوق هذا « الشاعر » من مديح النبي عليه السلام الى مديح أبي زيد الهلالي فيذكر قصيدته هو والزناتي خليفة ودياب بن غانم ، وما أظهره كل من هؤلاء الفرسان الابطال في الحرب من ضروب الشجاعة الخارقة وما قاساه « الهلالية » من ألوان الهول والبأس ،

وكيف أذلوا « الزنانية » وقهروهم وأخضعوهم الى سلطانهم ، ثم يذكر جمال « عاليه » امرأة أبي زيد ، ويتغزل فيها ويتشبب بكل جزء من جسمها ، ويفتن في وصف كل مظهر من مظاهر جمالها ، في صوت لا يخلو من جمال احيانا ، بحيث ترى الكل قد استفزتهم هذه الضروب من الشجاعة فحركت فيهم النخوة والبسالة واظهروا اعجابا بهؤلاء الابطال ، واعجابا خاصا كله التفاني والولاء والتعصب « لأبي زيد » بطل الحرب ورجلها ، وعند اشادة « الشاعر » بمحاسن « عالية » وغيرها من النساء وبعيونهن وشعورهن وصدورهن ونهودهن ، ترى الرجال قد توسعت احداق عيونهم وانفرجت شفاههم عن ابتسامات لها معناها وعن ضحكات الاعجاب ، وتمثلت شهواتهم وبرزت سافرة على عيونهم وعلى وجوههم كأنهم يشهدون حقا « عالية » هذه ، وكأنها أمامهم تنفث فيهم سحر جمالها ودلالها ، وكأنهم يريدون أن يقتلوها نظرا وتفرسا و « زنا العيون » !

هذا الضرب من اللهو الريفي المصري البسيط البالغ جمال البساطة وبراءة السذاجة ، ليس قاصرا على الريف بل يجد منازله حينا في بعض احياء مدننا عند العامة ومن اليها ، وليس هو بقاصر أيضا على مصر وحدها ، فاننا نعرف « الالياذه والاوديسا » لهوميروس ان تحققت هذه النسبة من الوجهة التاريخية الادبية ، ونعرف أن اليونان القدماء كانوا خاضعين كل الخضوع لهذا الضرب من اللهو

وكذلك كل الامم فى عهود بداوتها وفطرتها ، وكانوا يتلذذون حقا بالجلوس أو الوقوف حول « هومير » وغيره من القصاص والشعراء يذكرون لهم الحروب القديمة وأبطالها ، واعمال هؤلاء الابطال وشجاعتهم وبسالتهم ، كل ذلك بأسلوب قصصي جميل له جماله وله انغامه يتفق وعواطف القوم وميولهم وشعورهم وأوساطهم وتربيتهم وتكوينهم ، ونحن نعرف ايضا ان لكل أمة بدويها ومتحضرها ضروبها من اللهو ، ولكل منهاالطرق والوسائل المختلفة لأرضاء عواطفها ونزعاتها ، واشباع شهواتها وميولها ، وحاجات عقولها وقلوبها

واذا كانت أيام « الاعياد » تحسب من حياة اللهو ، فما هو يوم العيد في ريفنا المصري ؟ تحس بتباشير « العيد » حينما ترى كل امرأة تحيك ثياب أولادها الجدد ، وحينما تبصر حركة عامة شاملة في البيوت جميعا ليلا ونهارا : من عجين الخبز واعداد « كعك » العيد ، ومن دخان متصاعد من فجوات الدار ومن فرنها ، ومن عملية غسيل ، ثم تجفيف ونشر على أسطحة الدور ، الى عملية كنس الحارات ، كل امرأة أمام دارها ، الى عملية « الحناء » وخروج كل امرأة في الليل ببلاصها أو صفيحتها الى الترعة للاستعداد للاستحمام والاغتسال !

ولن تطلع الشمس من خدرها ومقصورتها صباح العيد حتي تملأ عينك مناظر الاطفال والاولاد بجلاليبهم الحمراء والبيضاء ،

وبأيديهم الملطخة بالحناء ، وفي أيديهم قطع الحلوى أو « عفريت النسوان » أو لعب أخرى ، ثم تبصر جماعات الريفيين بجلاليبهم البيضاء غالبا ، وبلغهم الصفراء الجديدة ولبدهم السوداء أو الحمراء حينا ، يسيرون مبتسمين فرحين مهنئين بعضهم بعضا بالعيد السعيد المبارك ، الذي قلما يتلاقون ويتقابلون جميعا الا في مثله متوجهين الى المصلى والى المساجد حيث يقيمون هناك صلاة العيد ، وبعد ذلك الى مقابر الموتى حيث يرفعون لهم هناك أدعية الرحمة وينزلون عليهم غيث المغفرة والرضوان ، وحيث يتذاكرون المصير الاخير والنهاية القاسية المرة ، ويتذاكرون موتاهم الاعزاء وماذا خلفوا في حياتهم ، فيتخذون منهم ومن اجدادهم وعظامهم عبرة الحياة وعظة الموت ودرس « المصير »

وهناك تشاهد بين المقابر جماعات النساء بسلالهم وبأسباتهم مليئة بالكعك وبالتمر وبالحلوى لتوزع على جموع الاطفال والاولاد هناك « رحمة » على موتاهن وذكرى لعهودهم ووفاء لحقوقهم ، ويملأ سمعك أصوات عالية من جماعات « الفقهاء » يقرأون سورة « يس » الكريمة خاصة ، ثم يجازون على ذلك ببضع « كعكات» أو جانب من التمر

وأخيراً يعودون الى ديارهم ، يتزاورون ويهنئون بعضهم بعضا رجالا ونساء ، وفي العصر يخرج الرجال الى الخلاء والاماكن الفسيحة أو « الاجران » ، وهناك يلعبون « لعبة الحطب» وهي

كما قلنا المبارزة أو المضاربة بالعصى الغليظة ، أو يلعبون بالكرة من الخرق البالية ، أو يقضون جانبا من الوقت في « الاراجيح » المزدحمة ساحتها بالاطفال والفتيات والرجال

ومن المدهش أن ترى أحيانا في يوم العيد في الحقول كثيراً من الفلاحين بجلاليبهم الزرقاء يزاولون عملهم اليومي بجد ونشاط ولا يعطون جسومهم حقها من الراحة حتى فى مثل هذا اليوم !

هذه هي صورة مختصرة جداً للعيد فى الريف . وهي صورة ساذجة بريئة كما نرى ، ولكن نلاحظ انه ينقصها روح « الحياة » والشعور بالذات ، وهذه الظاهرة تكاد تكون عامة في مدننا وفي ريفنا ، فلن نفهم من العيد إلا الملابس الجديدة الانيقة والا الطهي الجيد والمأكولات الشهية ، أما العيد كيوم نلتقي فيه والطبيعة العظيمة المحبوبة الجليلة في حدائقها وأزهارها وبحارها وأنهارها

أما العيد كيوم نحاول فيه الشعور بذواتنا وتغذية قلوبنا وأرواحنا مما في هذا العالم الرحيب من نور ومن جمال ، ونطلق فيه نفوسنا على سجاياها وطبائعها تنتقل على أفنان الحب وبين دوحات الجمال لا وجلة ولا متوجسة شراً ولا خائفة رقيبا أو عاذلا أو مواضعات النامس .

أما العيد بهذا المعني فبعيد عن بيئاتنا المصرية وعن تفكيرنا ، وهكذا نخلق لأنفسنا بأنفسنا مواضع الوحشة وغياهب الظلام وقيود الأسر !

قلنا قبل الآن أن الفلاح المصرى — رغما من بساطة حياة اللهو لديه — فهو لا يزاولها الا ندورا ، فلسنا نعرف رجلا مشغولا عن العالم وعن لهوه ولذاته منعزلا قابعا في داره ، محتقرا للحياة أو لمعناها بمعني أصح مثل فلاحنا المصرى ، فهو لا يقدر لنفسه وجودا ذاتيا ولا يدرك معنى الشعور بالحياة ، ولا يعرف ان هذه الحياة ملك لنا وحدنا ، نستمتع بها كيف نشاء وأني نريد وحيث نرغب ، أو ليست هذه الضروب من اللهو الا نوعا من العزاء والسلوى عما نلاقيه فى هذه الحياة من عنت ومن شقاء ؟ فليس من مصاب الا قدر الله له السلوى وليس من داء الا أوجد له الله الدواء ! وألا فكيف تكون هذه الحياة التى نحياها اذا كانت خلوا من السلوى وفيها ما فيها من نغص وبلاء ؟ والا فما فائدتنا من قلوبنا ومن آذاننا ومن عيوننا ، اذا لم تكن طرقا ومنافذ الى اللهو والى الاستمتاع بكل ما في الوجود قبل أن يغلقها الردم ويسدها ثرى الرمس ويطويها ظلام اللحد ؟ وماذا كان يكون مصيرنا وحياتنا اذا أريد منا أن نتحمل الألم وحده ثم نحرم اللذة ؟ وماذا كان يكون حالنا لو احتبست الآلام بين أطواء قلوبنا فلن تجد لها مخرجا الى العزاء أو متنفسا عن الشقاء ؟ كان أن تنفجر قلوبنا لتلفظ منها آلامها ، وتندك جسومنا لتطرد عنها همومها ، كان يكون الفناء والدمار والبوار ! ثم ماالموت ؟ أليس هو حرمان القلب أن يحب ، والعين أن ترى ، والنفس أن تتذوق لذات الحياة ، والروح أن تحوم في معابد الجمال

وأماكن القداسة ؟ واذا كنا لانتذوق لذات الحياة ونستمتع بلهوها وعبثها الآن ، فمتى تتاح لنا الفرصة لنلتذ ولنلهو ونعبث؟ أفي الرمس وقد اندثرت قلوبنا تحت أحجاره ، وبلي جسمنا تحت انقاضه . وتبددت عظامنا بين جوانبه ، وتبعثرت آمالنا وأحلامنا ورغباتنا وشهواتنا هواء فى ظلام وضلال ترابه ؟